الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

الاثنين ١٥ رمضان ١٤٢٤ هـ ١٠ نوفمبر ٢٠٠٣ العدد ٩١١٣

تركي الحمد

سؤال الإرهاب: في أن نكون أو لا نكون

رحم الله الملك المؤسس، عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، فقد كان رجل سياسة ودولة من طراز فريد، لا يمكن أن يُقارن إلا بمؤسسي الدول في تاريخنا وتاريخ غيرنا، سواء كان الكلام عن معاوية بن أبي سفيان، أو عبد الملك بن مروان، أو أبو جعفر المنصور، أو غيرهم من مؤسسي الدول في تاريخ العالم. عظمة عبد العزيز السياسية، تكمن في أنه كان يعرف بالدقة متى كان عليه التحرك ومتى كان عليه السكون. متى كان عليه أن يُقاتل ومتى كان عليه أن يجنح للسلم. متى يكون من المناسب الوقوف في وجه العاصفة، ومتى يكون من المناسب الإنحناء للعاصفة حتى تمر. متى يعادي هذه الدولة أو تلك، ومتى عليه أن لا يعاديها حتى وإن كان يمقتها في أعماقه. كيف يكون التحالف ومتى يكون نافعاً، وكيف يكون العداء ومتى يكون النفع فيه. متى يكون حدث معين خطرا على الدولة يجب الوقوف في وجهه بحزم، ومتى لا يكون. متى يكون ثائراً لا تقيده قيود، ومتى يكون رجل دولة مثقلاً بالقيود. من أجل ذلك كله استطاع ابن سعود أن يبني دولة مترامية الأطراف، من بحر القلزم وحتى خليج العرب والفرس، ومن بادية الشام حتى حدود اليمن. لقد كان معاوية بن أبي سفيان داهية من أبرز دهاة العرب، ورجل دولة وسياسة من طراز فريد، حين استطاع أن يقطف ثمرة الخلافة وسط منافسين لم يكن أفضلهم ابتداءً، ولكنه فاقهم انتهاءً. وعبد العزيز بن سعود لا يقل عنه شأناً في هذا المجال. فلم يكن ابن سعود الزعيم الوحيد في جزيرة العرب، ولم يكن الأقوى بينهم أو الأشد مراساً، ولكنه كان الأدهى والأبعد نظراً، ولذلك فإنه في النهاية فاق الجميع حين استطاع أن يحقق ما لم يستطع الآخرون أن يحققوه، وهنا تكمن العظمة.

فالعظمة ليست في أن تبز آخرين أقل منك شأناً، بل هي أن تبز من هو مثلك في العظمة أو حتى أكثر منك عظمة في هذه اللحظة أو تلك. فأن تسود قطيعاً من الغنم وأنت ذئب مسألة لا فخر فيها ولا اعتداد، ولكن أن تسود جماعة من الأسود وأنت أسد مثلهم، هنا تكمن حقيقة العظمة. ففي النهاية، فإن العظمة ليست هبة معطاة بقدر ما هي عبقرية مكتسبة. فقد يولد البعض وفي أفواههم ملاعق من ذهب أو فضة، فيمنحون صفة العظمة وهم من غير العظماء، ولكن مثل هذه العظمة لا تلبث أن تنجلي، ولا يبقى إلا العظمة التي لم تأت مع ملاعق الذهب والفضة. عظمة الملك عبد العزيز كانت تكمن في كونه يعرف ماذا يريد بالضبط، ومتى يحقق ما يريد، وكيف يحقق ما يريد. وكل ما كان الملك عبد العزيز يريده كان يدور حول غاية واحدة لا غاية قبلها ولا بعدها: وحدة الكيان، وكيفية المحافظة على استمراره واستقراره ، ومن هذه الغاية تتشعب كل غاية أخرى، ويتحدد كل سلوك آخر. فأعظم كارثة يمكن أن تحل بقائد أو سياسي أو مشتغل في الشأن العام، هي عدم وضوح الغاية وضبابية الهدف. مثل هذه الضبابية أو عدم

الوضوح تجعل التردد سمة السلوك بالنسبة لهذا القائد أو ذاك، مما يؤثر على نوعية القرار المتخذ، وبالتالي على البعد أو القرب من الهدف المنشود. الحزم والحسم ينبعان ابتداءً من وضوح الغاية ودقة الهدف، وإلا فإن كل سلوك بدون ذلك هو التخبط عينه. كان الملك عبد العزيز يعرف بدقة متى يجب اتخاذ هذا القرار ومتى لا يكون ذلك من الحكمة في شيء، بالنظر إلى الهدف الأسمى، أو الهدف المظلة الذي تنضوي في ظله كافة الأهداف.

فمثلاً، لم يكن من الحكمة في شيء أن يغزو حائل أو الحجاز في فترة من الفترات، لظروف محلية ودولية معينة، ولكنه وجد أن ذلك من الحتم في فترة لاحقة، وإلا ضاعت فرصة التوحيد. ولم يكن من الحكمة في شيء أن يصطدم مع جيشه من الاخوان في فترة من الفترات، ولكنه كان حتماً يجب أن يُتبع في فترة لاحقة، حين كان وجود الدولة نفسها، واستقرار ذات المجتمع على المحك. ولم يكن من الحكمة البدء في عملية تحديث للدولة الوليدة في فترة من الفترات، ولكنه أصبح قدراً لا محيص عنه في فترة لاحقة، عارض من عارض وأيد من أيد، فالقضية في النهاية قضية وجود لا قضية خيار سياسي ضمن خيارات. ففي فترات تاريخية معينة، يكون هنالك قرارات تاريخية تمس سلامة الكيان وحيويته ووجوده يجب أن تتخذ، وإلا فإن العاقبة قد تكون هي ذات الكيان. كان عبد العزيز يعرف كل ذلك، ويتصرف وفقاً لكل ذلك، ولم يغب عن ذهنه يوماً الغاية الأعلى لكل ما يفعل، ألا وهي سلامة الكيان، وحيوية مجتمع يجب أن يكون كذلك من أجل استمرار الوجود في النهاية.

وإذا كان عبد العزيز قد واجه ما واجه، وانتصر على كل ما واجه نتيجة اتخاذه القرار المناسب في الوقت المناسب، فإن المملكة العربية السعودية اليوم تواجه أزمات مصيرية بالنسبة لوجودها وسلامة كيانها، فيما لو لم يكن هناك وعي بهذه المسألة أولاً، ومن ثم السلوك وفقاً لهذا الوعي ثانياً. ولعل أخطر أزمة تواجه الكيان اليوم، الدولة والمجتمع معاً، هي قضية العنف الموجه ضد الدولة والمجتمع معاً، الذي أخذ يستشري بشكل متصاعد في الآونة الأخيرة. لا نريد هنا أن نناقش جذور هذا العنف، الثقافي منها والسياسي وغير ذلك، ومن أين نبع وكيف، فتلك قضية أخرى ليس هذا مكانها ولا وقتها، بقدر ما أن الوقت هو محاولة احتواء هذه الظاهرة والقضاء عليها أولاً، ومن ثم مناقشة الأسئلة المعلقة مستقبلاً من أجل أن لا تتكرر الظاهرة من جديد. فقد تكون هذه الظاهرة نتيجة أخطاء سابقة تلام فيها الدولة أو المجتمع أو هذا وذاك من الفرقاء، ولكن ذلك قد أصبح جزءا من الماضي، والوقت اليوم هو وقت صناعة المستقبل لا لوم الماضي. فهناك اليوم الكثيرون ممن يناقش هذه الظاهرة ويرفضها، ولكن بعد أن يكون شيء من التبرير تالياً لكل رفض أو شجب. اليوم لم يعد هنالك مجال لحزب «التبرير»، فالمجتمع والدولة على مفترق الطرق يبتغي فيه توخي الحذر، فإنه لا مجال لتبرير أو تعذير، وغير ذلك من فذلكات هي إلى الرفاه أقرب. كل الجهود يجب أن تكون موجهة لمحاربة هذه الظاهرة، إذ أن فقدان الكيان يعني في النهاية فقدان كل شيء آخر، ولن ينفع الميت في الخاتمة عناية الطبيب مهما كان ماهراً.

حرب هذه الظاهرة لا تكون بالوسائل الأمنية فقط، وهي المطلوبة أكثر من غيرها هذه الأيام، ولكن بالتضافر مع جهود المجتمع بالإضافة إلى جهود الدولة. فالدولة، مهما كانت جادة في محاربة الظاهرة، فإنها لا تستطيع أن تنفذ إلى أعماق المجتمع وما يدور فيه. قد تصدر الدولة الأمر، ولكنها لا تستطيع تنفيذه إن لم يكن هنالك وعي مجتمعي بجدية الأمر وضرورة حماية النفس قبل حماية أي شيء آخر. فتصريح الأمير عبد الله بن عبد العزيز مثلاً بشأن اجتثاث الإرهاب من جذوره، ورفض كل من يتخذ الدين ستاراً لتبرير العنف والإرهاب، وأن من يبرره هو مشارك فيه، لا يجد له طريقاً للتنفيذ الكامل ما لم يكن هنالك وعي اجتماعي بضرورة ذلك، من حيث أن المسألة قد أصبحت تهدد وجود الدولة والمجتمع معاً، وليست القضية قضية مجموعة من المعارضين لهذه السياسة أو تلك من سياسات الدولة. ليكن هنالك معارضة، وليكن هنالك نقد، وليكن هنالك كشف لكل ما هو سيئ ومرفوض، ولكن ما يجري من عنف مدمر، لا علاقة له بمعارضة أو نقد أو استياء، بقدر ما أنه نشاط لنسف الدولة من أساسها، وهدم المجتمع على رؤوس من يعيشون فيه. ورغم كل ذلك، فإننا لا نزال نجد من بيننا من يحاول تبرير العنف، ولا أقول تفسيره، سواء ممن هم يلتفون بعباءة الدين، أو ممن هم يرون كل شيء يمكن رؤيته، إلا أن الكيان الاجتماعي والسياسي في خطر. فها هو أحدهم، ومن خلال برنامج تلفزيوني، يبرر ما يقوم به

هؤلاء، ويدعو إلى العفو عنهم، بل ووضع اليد في أيديهم، ويسمي ذلك إصلاحاً وهو أبعد ما يكون عن الإصلاح. وها هو آخر يرى أن استفزاز الشباب «المسلم» هو الدافع إلى مثل هذه الأعمال، ولذلك يجب وقف الاستفزاز، وكأن المجتمع لم يعد مسلماً بكليته. والاستفزاز في عرف هؤلاء هو تمكينهم في النهاية من الدولة والمجتمع معاً وبالكلية، وكأن كل شيء يجب أن يروق لهم وأن يكونوا له من السامحين، أو كأنهم قد حصلوا على حجة ملكية للدولة والمجتمع. منشورات ونشرات توزع وتقرأ في المدارس والمعاهد ودور العبادة وغيرها، وكلها مخالف لما تقوم به الدولة من محاولة لاجتثاث العنف والارهاب من جذوره، فيهدم بيد ما يبنى بيد أخرى، وكأن هنالك دولة داخل الدولة. قد تكون الدولة ملومة جزئياً هنا في كونها لم تتعامل مع الظاهرة تعاملاً كلياً، أو أنها لم تنتبه لخطر أصحابها إلا مؤخراً، ولكن الملوم الأكبر هنا هو المجتمع، عندما نرى كل هذا التهديد لمستقبلنا ومستقبل أجيالنا فنبقى من الصامتين، بل ومن الخائفين، في الوقت الذي علينا أن ندرك فيه أن الخوف الحقيقي لم يأت بعد، فيما لو تم التراخي في التصدي لهذه الظاهرة، وتم لمثل هؤلاء ما يدبرون. نعم، إن ظاهرة العنف والإرهاب تشكل تحدياً في الوجود بالنسبة للكيان السعودي كله، مجتمعاً ودولة، حاكماً ومحكوماً، فإما أن نكون أو لا نكون، ولا وسط بين الوجود والعدم.